

الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

١٧٧٤ - ٨٩

١ - الدين والثورة

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة في البلاد ، تملك نحو ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها في مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونى جنيه وأربعة بلايين ، وتغل دخلاً سنوياً قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه^(١) . يضاف إلى هذا ١٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من العشور التي تجبي على غلات الأرض وماشيتها^(٢) . وكانت هذه الدخول في نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها - وهي دعم الحياة الأسرية ، وتنظيم التعليم (قبل ١٧٦٢) ، وتربية الأخلاق ، وتأييد النظام الاجتماعي ، وتوزيع الصدقات ، ورعاية المرضى ، وتوفير الأديرة ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازفة عن السياسة يحميها من فوضى الزحام واستبداد الدولة ، وغرس مزيج حكيم من الخوف ، والرجاء ، والتسليم ، في نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعدم المساواة الطبيعية بين البشر .

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة اكليروسها الذي كان قوامه نحو نصف في المائة من السكان ، وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام ١٧٧٩^(٣) ، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير ، ويروون إن « رهبان كثيرين كانوا يجذبون الأفكار الجديدة ، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة »^(٤) ، وهجر مئات الرهبان حياة الرهبنة ولم يحل محلهم جدد ، وتقلص عددهم في فرنسا بين ١٧٦٦ و ١٧٨٩ من ٢٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ ، وفي أحد الأديرة

من ثمانين إلى تسعة عشر ، وفي آخر من خمسين إلى أربعة^(٥) . وقد أغلق مرسوم ملكي صدر عام ١٧٦٦ جميع الأديرة التي تضم أقل من تسعة نزل ، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهبنة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين للرجال ، وإلى ثمان عشرة للنساء . وكانت أخلاق الرهبان منحلة . كتب رئيس أساقفة تور في ١٧٧٨ : « ان الأنحوة الرماديين (الفرنسيين) في حالة انحطاط في هذا الإقليم ، ويشكو الأساقفة من انحطاطهم وما في حياتهم من فوضى »^(٦) . أما أديرة الراهبات فكانت في حالة طيبة . وكان هناك ٣٧,٠٠٠ راهبة يضمنهن ١,٥٠٠ دير في فرنسا عام ١٧٧٤^(٧) ، وكانت أخلاقهن فاضلة ، وقد نشطن لهن في تعليم الفتيات ، والخدمة في المستشفيات ، وتقديم المأوى للأرامل ، والعوانس ، والنساء اللاتي تحطمن في معركة الحياة .

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً في مزار الأسقفيات وساء في الأبرشيات . وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المعتمدين ، وبعض الكسالى المتشبهين بمتع الحياة الدنيا . وقد وجد بيرك أثناء زيارته لفرنسا عام ١٧٧٣ بعض الأساقفة ممن يعيهم الجشع ، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير موقع بعلمهم ونزاهتهم^(٨) . وقد نخلص مؤرخ ألم بكتب الفصائح إلى هذا الحكم « يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التي استشرت في جسم الأكليروس كاه خلال القرن السادس عشر قد اختفت في القرن الثامن عشر . وكان قساوسة الريف عادة رجالاً ذوي أخلاق كريمة ، متقشفين ، فضلاء^(٩) رغم قانون التبتل » ، وقد شكوا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء الطبقية في الأساقفة ، وكانوا كلهم نبلاء ، ومن إزاهم بتحويل الجزء الأكبر من العرشور إلى الأسقف ، وما ترتب على ذلك من فقر ألبا القساوسة إلى أن يفتحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة . وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم ، وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه في العام إلى سبعمائة . فإما أقباط الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة . كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسي والاقتصادي ، ولكن أكثرهم ظل صلباً لا يلبين في عدائه لأي تغييرات في الكنيسة أو الدولة^(١٠) .

وحيث أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغريباً بالعدوان عليه ، وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا في قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون في نزع أملاك الكنيسة السبيل الأوضح لإصلاح مالية البلاد . والتي رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا المدافع الاقتصادية .

وزكا الإيمان الديني في القرى ، وخبيا في المدن ؛ وفي المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدي . قالت مدام فيجييه - ليرون مسترجعة ذكرى ما ضيها « كانت أمي تقيّة جداً . وكنت أنا أيضاً تقيّة في قرارة نفسي . وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القديس المطرول ونختلف إلى خدمات الكنيسة » (١١) . وكانت الكنائس تكتظ بالمصايين في الآحاد والأعياد الدينية (١٢) . ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القائدة . وفي أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرحة زياً راج حتى بين النساء . كتب مرسييه في كتابه « صورة باريس » في ١٧٨٣ يقول : « لم يحضر أفراد المجتمع العصري القديس طوال السنوات العشر الماضية ، فإذا حضروا فلكيلا يصددهم شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا إرضاء لهم » (١٣) ، وهذا القطاع الأعلى من الطبقة الوسطى حذو الأرستقراطيين . أما في المدارس « فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام ١٧٧١ » (١٤) ، وأهمل كثير من الطالاب حضور القديس وقرأوا كتب الفلاسفة . وفي ١٧٨٩ صرح الأب بونفاكس بأن « أخطر فضيحة ، والفضيحة التي ستجر أونخم العواقب ، هي الطهر التام تقریباً للتعليم الديني في المدارس العامة » (١٥) . وقد قيل عن إحدى الكليات أن « ثلاثة من البلهاء فقط » هم الذين يؤمنون بالله (١٦) .

أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول . فالأساقفة « قبلوا المبادئ النفعية التي قال بها جماعة الفلاسفة ، واحتفظوا بالمسيح واجهة سائرة فقط » (١٧) . وكان مئات من رؤساء الأديرة مثل ما بليه ،

وكوندياك ، وموريلديه ، ورينال ، هم أنفسهم « فلاسفة » ، أو معتنقين للشكوك السارية . ثم أساقفة كتاليران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحي إلا قليلاً ، ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبربين ، شكوا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله (١٨) . وقد رفض لويس أن يكاف قسيساً بتعليم ولده محافة أن يفقد الغلام إيمانه الديني (١٩) .

وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات . في عام ١٧٧٠ أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت « العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر » (٢٠) . وكانت الحكومة في عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت في تطبيق القوانين التي منعت دخول البروتستانت إلى فرنسا ، فكان منهم الآن مئات في المملكة ، يحيون في ظل قيود سياسية ، وفي زيجات لا تعترف بها الدولة ، وفي خوف كل يوم من أن تطبق عليهم في أي لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة ، وفي يوليو ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستانت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستانت من جميع المناصب العامة ؛ كذلك طلب خفض السن التي يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة (٢١) . وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات ، وأن يخفف عن البروتستانت قيودهم ، فشارك الكهنة في الحملة لإقصائه . وفي ١٧٨١ أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال « التاريخ الفاسي لجزر الهند الشرقية والغربية » بأمر من برلمان باريس ، ونفي المؤلف من فرنسا . وهاجمت الصور بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة . وفي ١٧٨٥ طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد (٢٢) .

غير أن الكنيسة التي أو هن بأسها قرن دن المعجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على الرأي العام ، ولا على الاعتماد على « الذراع العلمانية » في تنفيذ أوامرها . فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب تيمم التتويج التي أقسمها لخلق المرطقة ، أذعن لضغط الأفكار الليبرالية وأصدر في ١٧٨٧ مرسوماً للتسامح أعده باليرب : « ان عدالتنا لاتسمح لنا بأن نحرم بعد اليوم

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية» (٢٣) .
وقد أبقى المرسوم على حرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة ، ولكنه
أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى ، وسمح لهم بالمهنة الحرة ، وأضفى
الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلية ، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية
في المنازل الخاصة . ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لا لوزرن
أيد بقوة تحرير البروتستنت وإطلاق الحرية الكاملة للعبادة الدينية (٢٤) .

ولم تكن هناك طبقة في مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الذكور المتعامدة من
الأكليروس الكاثوليك . يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة « لا لأن
القساوسة زعموا أنهم ينظمون شؤون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً
للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً في هذا العالم » (٢٥) وكتب
فلاح إلى نكير في ١٧٨٨ يقول : « إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما
يرتع كهنة الكتدرائيات في رغد من العيش ولا يفكرون إلا في تسمين
أنفسهم كأنهم نخنازير ستذبح للفصح » (٢٦) . وغاظ الطبقات الوسطى إعفاء
ثروة الكنيسة من الضرائب .

ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات اما على الدولة وإما على
الكنيسة ، ونادر أن نشبت ضدهما معاً في وقت واحد . فالقبائل الهمجية
أطاحت بروما ، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . والسوفسطائيون
في اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستنتي في أوروبا القرن السادس عشر ،
رفضوا الدين السائد ، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة : أما الثورة الفرنسية
فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً ، واضطلعت بمهمة ومخاطرة مزدوجة ،
هي مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدينيوية للنظام الاجتماعي القائم .
فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان ؟

٢ - الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم وقد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون
أدبياً بالعثور على أساس آخر ، على نسق آخر للإيمان يحمل الناس على السلوك
الكريم بوصفهم مواطنين ، وأزواجاً ، وآباء ، وأبناء (٢٧) . ولكنهم لم

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشرى دون ناموس أخلاقي مكرس تكريساً فوق طبيعي . وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة الأخلاق لإيمان دينى شعبي . وكتب ما يليه إلى جون آدمز في ١٧٨٣ في « ملاحظات على حكومة . . . الولايات المتحدة الأمريكية » عام ١٧٨٣ منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأهوار الدين ، مهما كان غير ضار بالأفراد المنتورين العقلانيين ، إلا أنه ويبيل على أخلاق الجماهير . ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء « الأطفال » كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار (٢٨) . أما ديدرو وفي النصف الثاني من حياته فكر ملياً في وضع أخلاقيات طبيعية ، ثم اعترف بفشله : « بل إننى لم أجرؤ على أن أخط أول سطر . . . ولست أخالى كفتاً لهذا العمل الجليل » (٢٩) .

ولنسأل الآن أى ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتقدات فوق الطبيعية ؟ وفي جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا ننصو النصف الأول من القرن الثامن عشر في صورة مثالية . لقد قال فونتنيل قبيل موته في ١٧٥٧ إنه يتمنى لو ولد في أجله ستون سنة أخرى « لأرى النهاية التي تنهى إليه الحيانة الزوجية المستشرية والحلاعة وتحلل جميع الروابط » (٣٠) . فإذا كانت تلك العبارة (التي لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدنيا) تعطى صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا في فرنسا قبل « الموسوعة » (١٧٥١) ، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العميوس التي شابت الأخلاق في النصف الثاني من القرن . ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الدينى كانت توهن قوة الناموس الأخلاقي القديم ، فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على آثام كانت من قبل غاية التكافة . وقد صور لنا رستيف دلابرتون بورجوازيماً فاضلاً يتحسر على تدهور الخلق الفرنسى بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن (٣١) ؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم في الأسرة ، والمزرعة ، والناحية ، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية ، واختفاء للشخصية بين محشود المدينة . وفي كتابه « ليالى باريس » وصف رستيف باريس الثمانينيات كأنها در دور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين ، وصغار اللصوص ،

ومحترفي الإجرام ، والبغايا إناثاً وذكورا . وذهب تين إلى أن فرنسا في ١٧٥٦ - ٨٨ ابتليت « بالمتشردين » والمتسولين ، وبكل ضروب النفوس العنيدة . . . الكريمة ، القدرة ، الشرسة ، المتوحشة ، التي ولدها النظام ؛ وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية « (٣٢) . وكانت حثالة الكائن الاجتماعي هذه نتائج الطبيعة البشرية ومحكم البوريون ، ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطواء شعلة الإيمان .

وربما كان بعض القمار الذي ازدهر في باريس (كما في لندن) مرتبطاً بعدم الإيمان ، ولكن الجميع شاركوا فيه ، أتقياء وعصاة على حد سواء . وفي ١٧٧٦ ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج في « اليانصيب الملكي » . ومع ذلك يجوز أن نعزو إلى حد معقول شطراً من الفوضى الجنسية في الطبقات العليا إلى الإلحاد . ففي كتاب شودرلو دلاكو « العلاقات الغرامية الخطرة » (١٧٨٢) نجد أشرفاً وهميين يتبادلون الملاحظات في فن الإغواء ، ويضعون الخطط لفض بكارة فتاة في الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير ، ويعتقدون فلسفة العلمية الأخلاقية . وحجة البطل ، الفيكونت فالمون ، أن جميع الناس أشرار في رغباتهم على السواء ، ولكن أكثرهم يخفون في تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم . ويقول فالمون أن الرجل العاقل يسعى إلى اشباع أي أحاسيس تعده بأعظم لذة ، ويحتقره كل النواهي الأخلاقية (٣٣) . ويحضرنا في هذا المقام أن بعض السوفسطائين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا آهتهم (٣٤) .

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقي هذه ، كما يعرف العالم كله الآن ، غلا فيها غلواً مقززاً الكونت دساد - الذي يسمى خطأ عادة بالمركيز دساد . وقد ولد في باريس عام ١٧٤٠ ، وخدم في الجيش اثنتي عشرة سنة ، وقبض عليه ومحكم عليه بالإعدام بتهم اللواط (١٧٧٢) ، ثم فر ، وقبض عليه ، وفر ثانية ، وقبض عليه من جديد ، ثم محكم عليه بالسجن في الباستيل . وهناك ألف عدة قصص وتمثيلات ، فيها من الفحش والبذاءة ما اتسع له خياله : وأهمها « جوستين » (١٧٩١) ، و « قصة جوليت ، أو أزهار

الرديلة» (١٧٩٢) . وهو يزعم أنه مادام الإله غير موجود ، فإن العاقل من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية ، وكل الرغبات نخيرة على السواء ، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام ؛ والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة ؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة ؛ والجريمة متمتع لو تجنبت افتضاح أمرك ؛ وقل أن تجد شيئاً ألد من ضربك فتاة جميلة ، ولم يصدم القراء بالانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالماعة إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأى أذى يذكر حتى أنه « لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيثية كله » (٣٥) . وفي ١٧٨٩ نقل دساد إلى مستشفى الأمراض العقلية في شارنتون ، ثم أفرج عنه في ١٧٩٠ ، وحكم عليه بالعودة في ١٨٠٣ لاستعصاء شفاؤه ، ومات في ١٨١٤ .

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلقي لنقدهم اللاهوت المسيحي ، وأن العقل السليم يقر الالتزامات لأدبية سواء دان أو لم يدين بالإيمان الديني ، وقد أقرها كثيرون ، وكان بين سكان فرنسا — بل سكان باريس — الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقي : ازدياد رقة العاطفة والحنان ، وانتصارات الحب الرومانسي على زيجات المصلحة ، والأم الشابة ترضع طفلها بفخر ، والزوج يتودد إلى زوجته ، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعي . وكثيراً ما كانت هذه التطورات ممزجة ببقايا من العقيدة المسيحية ، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية ، ولكن ديدرو الملمح أيدها تأييداً حماسياً .

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتفاض على إباحيته الجنسية . وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه ومحياته ، وبوفائه لزوجته ، وبأدائه للقمار . وشاركت الملكة ذاتها في زى البساطة ، وقادت حركة إحياء الحساسية ورقة العاطفة . وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة (٣٦) . وكان أكثر الأدب مهذباً ، ونحيت قصص كريبيون الابن جانباً ، وقررت قصة برناردان دسان — بيير « بول وفرجينى » طابع الطهارة الخلقية في الحب . وعكس الفن الأخلاق الجديدة ، ومجد جروز ومدمام فيجيه — لبرون الأطفال والأمومة .

وغذت المسيحية والفلسفة معاً نزعة إنسانية بثت المثات من أعمال البر والخير . وفي شتاء ١٧٨٤ القارس نخصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء ؛ وشاركت ماري أنطوانيت بمائتي ألف من جيبها الخاص ، وحذا الكثيرون حذوهما . وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التي أسسها الأييه داييه في ١٧٨٨ لتعليم أبجديته الجديدة التي ابتكرها للصم والبكم ، ومدرسة الأطفال المكفوفين التي افتتحها فالتان هاوي في ١٧٨٤ . وأسست مدام نكير (١٧٧٨) ملجأ ومستشفى للفقراء ، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام . ووزعت الكنائس ، وأديرة الرهبان والراهبات ، الطعام والدواء . وفي هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق :

كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو ، فهي لم تبلغ قط في عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الديمقراطية . صحيح أن الفوارق الطبقيّة ظلت قائمة ، ولكن خفف منها لطف أعظم وبجاملة أوسع . وكان الموهوبون من الرجال ، الذين لا يحملون ألقاب شرف ، يلقون الترحيب في أعرق البيوت محتدماً . ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذاً جريحاً ، ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجولة ليساعداً عاملاً على تخليص حربته من الوحل ، وأصبح اللباس أبسط : فانتفت البوارياك ، وتخلّى السادة ، إلا في البلاط ، من مطرزاتهم ، ومخرماتهم ، وسيوفهم ، بحيث كان من العسير في عام ١٧٨٩ أن ينيء المرء عن طبقة رجل من زيه . وحين استهوى فرانكان فرنسا استسلم له حتى الخياطون ؛ وظهر الناس في الشوارع « يلبسون على الطريقة الفرانكليزية قاشاً نحشاً ، وحذاء سميكاً » (٣٧) .

أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين في لباسهن تزين سيدات البلاط . وبعد ١٧٨٠ نبذت النساء الطوق الحديدى الثقيل ، واكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسها متراكبة كالأحجية الصينية المعقدة . وقصرت الصنادرات من أمام ، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط) ،

وفي الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود النعيلة ، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل « الغشاشة » أو « الكاذبة »^(٣٨) . وظلت تسريحات الشعر عالية ، ولكن حين فقدت ماري أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة « البرج » ، وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس . وكان هناك مائتا طراز لقبعات النساء ؛ وكان بعضها هياكل ضعيفة من السلك ، والریش ، والأشرطة ، والأزهار ، والحضر الاصطناعية ؛ ولكن النساء اتبعن في أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذي ابتدعته الملكة في البتي تريانون ، والذي يغطي الرأس بوشاح بسيط . وفي أعظم الثورات قاطبه لبس بعض النساء الأحذية الواطئة أو الإخفاف المريحة^(٣٩) . ورافق هذا التغيير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب في العيش أصبح . وأقبلت قلة متزايدة على « العيشة الطبيعية » : فلا مشدات ، ولا خدم ، ومزيد من الحياة في الهواء الطلق ، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن . كتب آرثر ينج يقول « كل من يملك بيتاً في الريف يهرع إليه ، ومن لا يملك يزور من يملك . والثورة التي قلبت آداب السلوك الفرنسية هي ولا ريب من أفضل الملامح التي أخذوها عن إنجلترا . وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو^(٤٠) . غير أن الكثير من هذا « الرجوع إلى الطبيعة » كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملاً أو واقعاً ، وظلت الحياة في باريس تجري في سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية ، والأوبرات ، والتثيليات ، وسباقات الخيل ، ورياضات الماء ، وألعاب الورق ، والرقص ، والحفلات الراقصة ، والدردشة ، والصالونات .

الصالونات (Salonnières)

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لايمفاتن أشخاصهن وأزيائهن فحسب ، بل بقدرتهن التي لا تبارى على جعل المجتمع الفرنسي جزءاً حيويًا من الحياة الفكرية للأمة ، لا مجرد اجتماعات للثروة والقبيل والقال . كتب جيهون بعد أن وصل في ١٧٧٧ ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول :

« لو أتيح ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام ٣٣١ م) . لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقرة قادرين على فهم تلميذ من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه ، ولعله .مغتفر تلك الحماقات اللطيفة التي تند عن أمة لم يوهن روحها الحربية قط حبها للترف ، وهو لا بد .مصنف لكمال ذلك الفن الرفيع الذي يرقق ويهذب ويجمل علاقات الحياة الاجتماعية » (٤١) .

ثم أضاف في إحدى رسائله « لقد بدا لي دائماً أن النساء في لوزان ، كما في باريس ، أرقى كثيراً من الرجال » (٤٢) .

وكانت قدامى الصالونيات يخين المسرح على كره . فدام جوفران مات عام ١٧٧٧ كما سبق القول . أما مدام دود فان فقدت أوشكت أن تم عبور القرن من أوله لآخره ، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى نخليلات الوصي على العرش (٤٣) . وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من ١٧٣٩ إلى ١٧٨٠ ، وكانت قد نحسرت معظم سباع الأدب ، إذ ظفرت بهم جولي دلسبيناس والصالونات الجديدة ، وقد وجد هوراس ولبول - الذي قدم إليها لأول مرة في ١٧٦٥ - تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملّة لا تثير اهتمامه . « إنني أتناول عشائي هناك مرتين كل أسبوع ، وأحتفل عشائها المملين كلهم لأجل خاطر الوصي على العرش » (٤٤) ، وهو يعنى ذكرياتها المرحّة لفترة الوصاية الرائعة تلك التي قررت طابع المجتمع الفرنسي والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية . أما هي ذاتها (في عبارة هوراس) « فلديزة (في الثامنة والستين) ، تواقّة لمعرفة ما يجري كل يوم توفى لما جرى في القرن الماضي » .

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً - لأنه لم ياتق قط بمثل هذا الذكاء اللامع في نساء إنجلترا اللاتي مازلن مقهورات مكبوتات - حتى لقد ألف أن يلم بها كل يوم ، وقدم لها من التحية والأطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبي ، وأفردت هي له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً ، ووفرت له التذليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها . وإذا كان في طبيعتها بعض الذكورة ، فإن

رقته الأثوية تقريباً لم تسؤها . واستطاعت وهي عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة . أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدني . وحين عاد إلى إنجلترا راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما في رسائل جولى دلسبيناس إلى جيبيير ، مكتوبة بأروع ما أبداه ذلك العصر من نثر . وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها ، وكان يقشعر فرقا إذا خطر له ما قد يفعله كتاب إنجلترا المجاعون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة المثيرة لشهية المجاع . واحتملت لومه ، وأكدت حبها من جديد ، ووافقت على أن تسميه صداقة ، ولكنها أكدت له أن الصداقة في فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب . « انني ملكك أكثر مني ملك نفسي . . . وددت لو استطعت أن أبعث إليك بروحي بدلاً من رسالة . واني لأبذل السنين من عمري عن طيب خاطر لأضمن وجودي على قيد الحياة حين تعود إلى باريس » وقد شبهته بمونتينى « وهذا أسمى مديح في وسعي أن أنخصك به ، لأنى لا أجد فكراً يعدل فكرة انصافاً ونصوعاً » (٤٥) .

ثم عاد إلى باريس في أغسطس ١٧٦٧ . وانتظرته في انفعال العذارى « أخيراً ، أخيراً ، لم يعد يفرقنا بحر . لا أستطيع أن أحمل نفسي على أن أصدق أن رجلاً له شأنك في الحياة ، ويداه على عجلة محكمة عظمى ، وإذن على عجلة أوربا ، في وسعه . . . أن يترك كل شيء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً في ركن دير . انه حقاً لأمر بالغ السخف ، ولكننى مسحورة . . . فتعال يا معلمى ! ليس هذا محلاً - فأنا أعلم أننى صاحبة - سأراك اليوم ! » وأرسلت مركبتها ليستقلها ، فوافاه على الفور . وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتحذيراته . فلما عاد إلى إنجلترا لم تستطع أن تفكر إلا في رجوعه إلى باريس ، « ستجعل غروني أجمل وأسعد كثيراً من ظهري أو فجرى . أن تلميذاتك ، المطيعة طاعة طفل ، لا أمنية لها إلا أن تراك » (٤٦) .

وفي ٣٠ مارس ١٧٧٣ طلب إليها أن تكف عن الكتابة (٤٧) . ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما . وفي فبراير ١٧٧٥ طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله ، فامتثلت ، مع الإماعة رقيقة إلى رغبته في أن يرد إليها رسائلها

« سيكون لديك ما يكفي لإنارة أحاسيسك الحارة مدى طويلاً إن أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التي تلقيتها مني وسيكون هذا انصافاً ولا ريب ، ولكني أترك هذا الأمر لحكمتك » (٤٨) . ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة ، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها ، ونشرت بعد موت ولبول . وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعرضه من إيراده الخاص ، ولكنها لم تر ضرورة لهذا .

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعي لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أمواتها الضحلة والعميقة . فقد استطاعت حتى في عمائها ، أن تنفذ ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التي لا يدركها التعب . وقد سألت ولبول « يا معلمى المسكين ، ألم تلق غير الوحوش ، والتماسيح ، والضباع ؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى ، والبله ، والكذابين ، والقوم الحاسدين ، الغادرين أحياناً .. إن كل من أراه هنا يذبل روحى . فلست أجد في أحد فضيلة ، ولا إخلاصاً ، ولا بساطة » (٤٩) . ولم يبق لها غير إثارة من إيمان دينى يعزىها . ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها ، مرتين في الأسبوع عادة ، وكثيراً ما كانت تتغذى خارج مسكنها ، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالي .

وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها ، وراضت نفسها على تقبل الموت . وكانت الأمراض التي تبلى بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عايتها ، فشعرت وهي في الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها . واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأهل دون كبير إيمان . وفي أغسطس ١٧٨٠ بعثت بآخر رسالة إلى ولبول تقول :

« إننى اليوم أسوأ حالاً . . . ولست أنحال هذه الحال معنى إلا النهاية . وليس فى من القوة ما يكفي للإحساس بالخوف ، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لى ما أسف عليه . . . فسل نفسك يا صديقى ما استطعت . ولا تبتئس لحالى . . . وسوف تأسف على ، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب » (٥) .

وماتت في ٢٣ سبتمبر تاركة لولبول أوراقها وكلها .

وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل :
السيدات دودتو ، ودينبه ، ودنى ، ودجنليس ، ولكسمبور ، وكوندورسيه
وبوفليه ، وشوازيل ، وجرامون ، وبوهارنيه (زوجة عم لجوزفين) .
يضاف إليهن جمعاً آخر صالونات ما قبل الثورة ، وهو صالون مدام نكير
العظيم . وقد بدأت حوالي ١٧٧٠ حفلات استقبالها في الجمعة من كل أسبوع ،
ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هي الغالبة على الندوة ؛
وهناك قسمت المدعوين للعشاء بحرب جلوك - بلتشيى حزين ، ثم ومحدث
بينهم الأنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها . وفي
الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديدرو ، ومارمونتيل ، وموريليه ،
ودا لامبير (بعد موت جولى) ، وسان - لامبير ، وجريم (بعد موت مدام
دينبه) ، وجبون ، وزينال ، وبوفون ، وجيبير ، وجاليانى ، وببجال ،
وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها . وفي أحد هذه الاجتماعات
(أبريل ١٧٧٠) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير . هناك كان ديدرو ويكتت
هرطقاته ، وهناك كاد يصبح رجلاً مهذباً مصقولاً . كتب إلى مدام نكير
يقول « مما يؤسفنى أن الحظ لم يواتى بمعرفتك فى وقت أسبق ، وإلا لكنت
بلا ريب بعثت فى إحساساً بالنقاء والرقّة يسرى من نفسى إلى كتبى » (٥١) .
ولم يبد غيره رأيهم فيها بمثل هذا الثناء . فمارمونتيل مثلاً ، وهو الذى ظل
صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً ، وصف سوزان فى مذكراته بهذه العبارات :
« لم تؤت شيئاً من مفاتن الشبابات الفرنسيات لجهاها بأداب باريس وعاداتها . .
فلا ذوق فى لباسها ، ولا يسر فى حركاتها ، ولا سحر فى أدبها ، وكان ذهنها ،
كما كان تعبير وجهها ، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفقدنا الحفنة والرشاقة .
وكان أكثر صفاتها جاذبية هى المجاملة ، والإخلاص ، ورقة الفؤاد » (٥٢) .
ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية . مثال ذلك أن البارونه دوبركيرش التى
زارت آل نكير مع الغراندوق بول فى ١٧٨٢ لم تر فيها « ببساطة أكثر من
مربية » (٥٣) ، أما المركيزه دكريكى فقد مزقتها إرباً فى صفحات مشحونة
بالغل الظريف (٥٤) ، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الحصول

الطبيبة حتى ظفرت بحب جبهون الدائم ، ولكنها لم تتغلب تماماً على تراثها الكافني إطلاقاً ، فظالت متزمتة صارمة التدين رغم ثرائها ، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذى توقعه الرجال الفرنسيون من السناء .

وفى ١٧٦٦ أنجبت الفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دسنال . وقد غدت هذه الفتاة جرمين تكير - التى شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام - عالمة وهى فى العاشرة . وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرهاق مزاجها العنيد العصبي أعصاب أمها . وقد أخضعت سوزان ابنها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً فى المحافظة كل يوم ، فتمردت الفتاة ، وأصبح الشقاق فى هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة فى مالية الدولة . وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التى لقيها نكير فى محاولته تفادى إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية ، وكرهها لكل نقد توجهه إليه الصحافة ، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التى كانت تحياها فى سويسرة .

وفى ١٧٨٦ تزوجت جرمين ، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة فى صالون أمها . غير أن الصالون الفرنسى كان آنذاك فى الاضمحلال . فالنقاش الأدبى كان يخلى مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة . كتبت سوزان إلى صديقة فى ١٧٨٦ تقول « ليس عندى أنباء أدبية أسوقها إليك ، فحديث الأدب لم يعد الآن موضوعة العصر ، والأزمة بالغة الشدة ، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار»^(٥٦) . وفى ١٧٩٠ انتقلت الأسرة إلى كوبيه ، وهو قصر ريفى اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية ، وهناك ملكت مدام دسنال ، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبي أليم قضى على حياتها فى ١٧٩٤ .

٤ - الموسيقى

كتب موتسارت من باريس فى أول مايو ١٧٧٨ : « من حيث الموسيقى أرانى محاطاً بوحوش ضاربة لا أكثر . . . سل أى شخص شئت - شريطة ألا يكون فرنسى المولد - فإذا كان له أى علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط . . . سأكون شاكرراً للإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقى »^(٥٦) .

وهذا حكم صارم ولكن جريم وجولدوني وافقا عليه^(٥٧) ، إلا أن هؤلاء النقاد الثلاثة كانوا كلهم أجنب : وقد عكس الذوق الموسيقي للباريسيين من عليّة القوم آدابهم ، فمال إلى القصد في التعبير والرتابة في الشكل ، وظل يردد أصداء عصر لويس الرابع عشر ، ومع ذلك ففي هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف باريس قصدهم ، وربما آدابهم ، في وطيس المعركة الدائرة حول بكيني وجلوك . تأمل رسالة جولي ليسبيناس المؤرخة ٢٢ سبتمبر ١٧٧٤ ، « انى أشاهد باستمرار « أورفي وأوريد يتشى » وأنا أتواقة إلى الاستماع مراراً وتكرار في اليوم لذلك اللحن الذى يمزق نياط قاي » « لقد فقدت حبيبتي أوريد يتشى »^(٥٨) . ان باريس لم تكن صماء لاتستطيع الموسيقى ، وان زاد ما استوردته منها على ما أنتجته .

وفي ١٧٥١ قدم فرنسوا - جوزف جوسيك ، البالغ سبعة عشر ربيعاً ، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى راموا . وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركستر الخاص الذى يديره الكسندر - جوزف دلابويلنير . وألف جوسيك لهذه « الفرقة » (١٧٥٤ وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات ، وفي ١٧٥٤ نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بسنة . وفي ١٧٦٠ قدم في كنيسة سان روش « قداس الموتى » الذى استحدث فكرة العزف على آلات نفخ «التوبا » خارج الكنيسة . ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية ، ففي ١٧٨٤ أسس « مدرسة الغناء الملكية » ، التى أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقي الذائع الصيت ، وقد حقق نجاحاً متواطعاً في الأوبرا ، الهازلة منها والجادة . ثم تكيف مع الثورة ، وألف بعضاً من أشهر أغانيها ، ومنها « ترنيمة للكائن الأعلى » لاحتفال روبيبير (٨ يونيو ١٧٩٤) ، وعمر بعد انحصار جميع موجبات السياسة ، ومات في ١٨٢٩ بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً .

أما أبرز شخصية في أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريترى . وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية في القرن الثامن

عشر ، فقد ولد في لياج عام ١٧٤١ لعازف كمان ، ويروى أنه في أول مرة تناول فيها القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلاً صالحاً وموسيقياً عظيماً . في ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً ، ثم تماثل للشفاء ، واستنتج أن السماء تعدّه بمسقبل سام (٥٩) . وكان منذ عامه السادس عشر يعاني دورياً من نزيف داخلي ، يتقيأ فيه ستة أقداح من الدم في اليوم ، وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهذيان ينتابه بين الحين والحين ، وكاد أحياناً يجن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد في رأسه دون توقف . ولعلنا نغفر حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقي كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنتين وسبعين سنة .

وحين كان في السابعة عشرة ألف ست سمفونيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما ، وقطع الطريق كله على قدميه فيما روته « المذكرات » الجذابة التي نشرها عام ١٧٩٧ (٦١) ، وخلال الأعوام الثمانية التي أقام فيها بروما حملة نجاح برجوليزي على تأليف الأوبرات الهائلة ، فلما جاء باريس (١٧٦٧) لقي التشجيع من ديدرو ، وجريم ، وروسو . ودرس فن الأنسة كليرون المسرحي ، واكتسب مهارة غير عادية في موازنة موسيقاه لنبرات الحديث الدرامي وتغيراته ، وحقق في أوبراته رقة ونعومة غنائيتين كأنهما انعكاس لروح روسو ، وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة في الحياة الفرنسية . وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة ، التي أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة ، وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته ، وقد منحه نابليون معاشاً ، وقد أحبه الجميع لأن محظه من وصحات العبقرية كان ضئيلاً ؛ فهو رقيق القلب ، ودود ، أنيس ، متواضع ، يذكر منافسيه بالخير ، ويؤدى ديونه ، وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه ، واشترى الإرميتاج في شيخوخته ، وهو الكوخ الذي أقام فيه روسو من قبل . في ذلك الكوخ ، في ٢٤ سبتمبر ١٨١٣ ، بينما كان نابليون يحارب أوروبا كلها ، مات جريترى .

٥ - الفن في عصر لويس السادس عشر

واصل « طراز لويس السادس عشر » ، الذي بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (١٧٥٤) ، انتقاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوكو الأنثوية ، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكي محدث أهتمته حفائر هر كولانيوم ومحاسنة فنكلمان للفن اليوناني-الروماني . وأشهر مثال على الطراز الجديد في العمارة هو البتي تريانو ، ومن الطريف المسلي أن تتفق مدام دوباري وماري أنطوانيت ، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة ، في الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين . ومثال جميل آخر هو « قصر اللجيون دونور » الحالى ، والذي بناه باسم « الأوتيل سالم » (١٧٨٢) بيير روسو على ضفة السين اليسرى . وهناك نتاج أضحخم لهذا الطراز هو « قصر العدالة » الذي أعيد بناؤه في ١٧٧٦ ، بمصبعاته الفخخرة من الحديد المشغول في واجهة « الكور دمية » . أما « مسرح الأوديون القومى » (١٧٧٩) فقد اتخذ نمطاً دورياً قاتماً ؛ وألطف منه المسرح الذى شاده في أميان (١٧٧٨) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكى وطراز النهضة ، وقد بنى فكتور لوى في بوردو (١٧٧٥) على النمط الكلاسيكى مسرحاً ضخماً وصفه آرثر ينج بأنه « إلى حد كبير أفخم مسرح في فرنسا ، ولم أر مسرحاً يدانيه » (٦١) .

أما الزخرف الداخلى فقد احتفظ بالأناقة الفرنسية . وكان زى النسيج المزدان بالرسوم في طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسى ذات الدراعين والأرائك ؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين ، ولكنه استعمل أساساً في المخادع ، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول ، المنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها في إيطاليا . وأبداع الأثاث المصنوع في فرنسا في عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان - هنرى ريزنر ودافيد رونتجن ؛ وتحتوى مجموعة ولسن نماذج رائعة صنعت لماري أنطوانيت والبتي تريانون ، وازدهر فن النحت ، وامتد العمر ببييجال ، وفالكونيه ، وجان -

جاء كافييرى من أيام لويس الخامس . أما أوجستن باجو ، الذى كان قد بدأ العمل فى ذلك العهد ، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير . وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه - رويال . والباليه - بوربون . وفى تمثاله « هجران بسيخى »^(٦٢) حاول التوفيق بين عنصرين فى العهد الجديد - العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكى . ثم نقل فنه - وزوج ابنته - لكلوديون ، واسمه الحقيقى كلود ميشيل . وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من التيرا - كوتا (الطين التضيح) فيها شائبة من الشهوانية ، وبلغ أوجهه بتمثال لمونتسكيو^(٦٣) . وكل نشوة الجسد تغنى فى تمثاله « الحورية والساطير » المحفوظ بمتحف المتروبوليتان للفنون فى نيويورك .

على أن أعظم نحأتى العصر هو جان - أنطوان أودون . وكان أبوه بواباً ، ولكن فى مدرسة للفن . وإذا كانت فرساي مسقط رأس جان ، فقد تنفس النحت من التماثيل التى بثها لويس الرابع عشر فى حدائق لنوتر . وبعد أن درس على بيجال فاز بجائزة روما وهو فى العشرين ، فانطلق إلى إيطاليا (١٧٦٠) . وقد اغتبط الباكلمنت الرابع عشر بتمثال « القديس برونو » الذى نحتته فى روما اغتباطاً شديداً فعاق عليه بقوله « إن القديس يود أن ينطق لولا أن قواعد رهبنته تفرض الصمت »^(٦٤) . وفى باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا . وتمثال برونزى منها فى مجموعة هنتنجتن يعد آية فى القسما الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية . وأشهر منه تمثال « ديانا العارية » « البرونزى المحفوظ الآن بالوفر ، وقد ضمن عليه مكان فى « صالون » ١٧٨٥ ، ربما (كما قال ناقد) « لأنها كانت أكثر جمالا وعرياً من أن تعرض على الجماهير »^(٦٥) ، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التى تصفها بالعفة .

وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فنانى القرن الثامن عشر فى تصوير معاصريه ربحاً يفوق تصوير الرباب اللأئى لا تنتهك حرمانهم . على أنه قرر أن يكون منصفاً للحقائق وأن يظهر الشخصية لا الوجه . وكان ينفق ساعات كثيرة فى حجرات التشريح بمدارس الطب لدراسة التشريح ، وكان يقيس

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع ، ثم ينحت تماثله أو يصبه وفق هذه المقاييس ، وحين أثير سؤال عن جثة نبشت في باريس وهل هي حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل ، قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التي صلبها أودون في ١٧٨١ ومقاييسها ، وبلغ من توافق الشكاين أن عد التتابع مؤكداً (٦٦) . وقد نحت في رخام التمثال الذي صنعه لميرابو كل غارات الجدرى ، وأبرز كل الظلال والتجاعيد ، بل توقد العينين وعمقهما ، والشفتين تنفرجان استعداداً للكلام .

وسرعان ما أسعد جبايرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم ، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه . وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، وبوفون ، وطورجو ، ولويس السادس عشر ، وكاترين الثانية ، وكاليوسترو ، ولافايت ، ونابليون ، وناي . وحين قدم فولتير إلى باريس عام ١٧٧٨ صنع له أودون عدة تماثيل تصوره : منها تمثال نصفي برونزي محفوظ الآن في اللوفر ، يبدو فيه الإرهاق والكلال ، وتمثال نصفي شبيه به في متحف فكتوريا وألبرت ، وآخر في مجموعة ولس ، ثم رأس مبتسم مهذب مثالي الشكل طلبه فردريك الأكبر ، وأشهر الكل ذلك التمثال الذي قدمته مدام دني إلى الكوميدي - فرانسيز : تمثال فولتير جالساً في روب فضفاض ، أصابع نحيلة تمسك بذراعى المقعد ، وشفاه رقيقة ، وفم أهتم ، وفي العينين الحزيبتين مازالت أثارة من مرح - أنه واحد من التماثيل العظيمة في تاريخ الفن . في ذلك العام ، حين سمع أودون بوفاة روسو ، هرع إلى أرمنون - فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت ، ومنه صنع التمثال النصفي المحفوظ الآن باللوفر ، وهو أيضاً آية من آيات الفن .

وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً ، وقد صنع أودون رعوساً تماثيلهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة في الولايات المتحدة مازالت تحمل صورة لواشنطن ، وفرانكلان ، وجفرسن . وحين عاد فرانكلان إلى أمريكا عام ١٧٨٥ ذهب أودون معه ؛ وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

واشنطن ، الرجل المشغول النافذ الصبر ، بأن يجلس إليه في فترات متقطعة أعلى مدى أسبوعين ، وهكذا صنع التمثال الذي يزدان به مبنى برلمان الدولة في رتشموند بفرجينيا - رجل من الجرانيت ، تجلله انتصارات غالية وأعباء باقية . هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذي هو علامة فن فن أودون ونخاتمه .

مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترفاً صغيراً لولا أن جرّوز وفراجونار واصلوا العمل طوال هذا العهد وخلال الثورة ، لولا أن المصور جاك - لوى دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون في فرنسا في انطلاقة نيزكيه كانطلاقة نابليون . وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد فرانسو بوشيه ، وأصبح رساماً من الطراز الأول ، وأستاذاً أتقن الخط والتأليف أكثر من إتقانه اللون . وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من بومبادور ودوباري إلى ماري أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التي تبرز النهود والأرداف ، فنصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكي المحدث البسيط في مرسم جوزف فيان ، الذي كان يرسم الجند الرومان والنساء الأبطال . وفي ١٧٧٥ وافق دافيد فيان إلى روما . وهناك أحس بتأثير فنكلمان ومنجز ، والمنحوتات القديمة في متحف الفاتيكان ، والأطلال التي كشف عنها في هركولانيوم وبومبي . وقد قبل مبادئ الكلاسيكية المحدث ، واتخذ النحت اليوناني نموذجاً يحتذيه في تصويره .

فلما قفل إلى باريس عرض سلسلة من الموضوعات الكلاسيكية المرسومة بصرامة : أندروماك تبكي على جثمان هكتور (١٧٨٣) ، وقسم الهوراتيين (١٧٨٥) ، وموت سقراط (١٧٨٧) ، وبروتس عائداً من الحكم بالموت على أبنائه (١٧٨٩) (٦٧) . (وتقول الأسطورة التي رواها ليفي أن لوشياس جونيوس بروتس ، حين كان بريتورا لجمهورية روما الفتية (٥٠٩ ق . م) ، حكم على أبنائه بالإعدام لتآمرهم على إعادة الملوك إلى عرش روما) ، وكان دافيد قد رسم هذه الصورة الأخيرة في روما ، فلما عرضها على الأكاديمية في باريس حظرت عرضها ، ولما كان جمهور الفن احتجاجاً ،

وأخيراً عرضت اللوحة ، فزادت من حمى العصر الثورية . ورأت باريس في هذه الرسوم ، وفي الأخلاقيات الصارمة التي عبرت عنها ، ثورة مزدوجة على الروكوك الأرسقراطى والطغيان الملكى . وأصبح دافيد البطل الراديكالى لأستوديوهات باريس .

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً فى المؤتمر ، وفى يناير ١٧٩٣ صوت بالموافقة على إعدام الملك . ثم قتل أحد المتشيعين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (٢٠ يناير ١٧٩٣) ، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً ، ورسم دافيد « آخر لحظات لبوليتيه » ، وعلق المؤتمر اللوحة فى قاعته . وحين قتلت شارلوت كورداي مارا (١٣ يوليو ١٧٩٣) صور دافيد الميت راقداً فى حماه نصف مغمور فى الماء ، ونذر أن كان التصوير ممعناً فى تصويره للواقع إلى هذا الحد ، أو فى تعمده إثارة المشاعر . وقد أرسى اللوحتان سجل شهداء الثورة ، وعمل دافيد بحماسة لدائتون وروبسبير ، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن فى باريس .

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب « القنصل » الرومانى ، رسم دافيد له بذات الحماسة التى رسم بها لزعماء الإرهاب . فرأى فى بونابرت ابن الثورة ، الذى يقاتل لمنع ملوك أوروبا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا . وحين نصب نابليون نفسه امبراطوراً (١٨٠٤) لم يفتر إعجاب دافيد به ، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطورى فرسم له المصور عدة صورة مشهورة : نابليون يعبر الألب ؛ نابليون يتوج جوزفين ؛ وتوزيع النسور ؛ وقد علق هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران حجرات قصر فرساي . وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكاميه والبابا بيوس السادس (٦٨) . فلما رد آل بوربون نفى دافيد باعتباره من قتلة الملك ، فاعتكف فى بروكسل ، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرته فى ١٧٩١ لتحمسه للثورة) . وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية ، وإلى أسلوب التصوير النحتى الذى حبه منجزاً ،

وفي ١٨٢٥ أنختم وهو في السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن .

ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيجيه - لبرون ، التي رفضت الثورة وآثرت الملوك والملكات . وقد نشرت وهي تدنو من عامها السابع والثمانين (١٧٥٥ - ١٨٤٢) مذكرات تروى وصفاً لطيفاً لشبابها ، وتذكر قصة محزنة لزاوجها ، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة ، وصورة لامرأة فاضلة يصدها عنف التاريخ . وقد مات أبوها وهي في الثالثة عشرة ، وكان مصور أشخاص ، ولم يترك لها مالا ، ولكن الزباث كانت تامينة شديدة الذكاء ، فاستداعت وهي بعد في السادسة عشرة أن تكسب دخلاً طيباً من صورها . وفي ١٧٧٦ تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون ، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذي كان مدير الفنون للويس الرابع عشر . وبدد زوجها ثروتها وثروته (كما تقول) « بشغفه الجامح بالنساء السيئات الخلق ، وبولعه بالقمار »^(٦٩) . وقد ولدت له ابنة ، ثم هجرته بعد ذلك بقليل .

وفي ١٧٧٩ رسمت صورة لماري أنطوانيت ، التي بلغ إعجابها بها أن جالست لها لترسمها في عشرين لوحة . وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان في غناء الألحان الرقيقة التي كان جريترى يستدر بها العبرات من عيون باريس . وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجذابة هذا العطف الملكي وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة . وقد نخلت الحسن على كل امرأة ، ووضعت الورود في الحدود الذابلة ، ومالبت كل سيدة ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصورها . وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة غالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقي باريس .

وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوباري في لوفسيين رغم صداقتها للملكة . وفي المرة الثالثة (١٤ يوليو ١٧٨٩) سمعت قصف المدافع في باريس . فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط ، وأن جماهير الغوغاء الظافرة تحمل الرعوس النبيلة على أسنة الرماح المملوطة بالدماء . وفي ٥ أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يسير صوب فرساي ليأسر الملك والملكة ، جمعت

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفي الاختياري، وقد رسمت في روما لوحها المعروفة التي تصورها وتصور ابنتها (٧٠) ، وفي نابلي رسمت لليدي هاملتن في صورة بانخوسية (٧١) ، ورسمت في فيينا ، وبرلين ، وسانت بطرسبرج ، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (١٨٠٢) ، وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها ، وأحسنت صنعا بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد .

٦ - الأدب

أنجب الأدب الفرنسي في الحقبة القصيرة الواقعة بين ١٧٧٤ ، ١٧٨٩ بعض الآثار المذكورة التي مازالت تجد القراء وتحرك العقول : منها « الحكم » لشامفور ، وبول وفرجينى لبرناردان دسان - بيير ، والعلاقات الغرامية الخطرة لشودرلو دلاكلو (التي تكلمنا عنها بما فيه الكفاية) ، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على ما فيها من فوضى .

تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أدبي يموج بالمدارس والمكتبات ، ومجموعات القراء ، والمحاضرات ، والصحف ، والمجلات ، والنشرات ، والكتب ، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمير لم يعرف العالم له نظيراً من قبل . ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسي غير قلة قليلة (٧٢) ، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة بجياشين بالأفكار ، واتسع الطلاب على الموسوعات ، وخلصات العلم الوافية ، وماخصات المعرفة ، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم .

وكان أكثر التعليم لايزال في أيدي رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس ، أما الجامعات المتصلة في تقاليدھا الدينية والسياسية فكانت قد تبلدت وساءت سمعتها ، وكانت في نهاية القرن بادئة لتوها في الالتفات إلى العلوم . غير أن المحاضرات العامة في العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها ، وكانت المدارس التقنية في ازدياد . وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى ، أما شباب النبلاء فأثروا إحدى

الأكاديميات الحربية الإثنتي عشرة التي أنشأها سان - جرمان عام ١٧٧٦ أو بعده (وفي واحدة منها - بمدينة بريين - كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه) ، ويروون أن طلبة الكليات « كثيراً ما الفوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية » (٧٣) ، ولما كان عدد نخريجي الكليات في تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسي على استخدامهم ، فقد بات الخريجون العاطلون مصدراً للسخط والتدمر ، وألف هؤلاء الرجال نشرات أجمعت نيران الثورة .

وكان للأغنياء مكتبات خاصة في مقار تمسك عليها ، تضم كتباً تجلداً تجليداً فاحراً وتقرأ أحياناً . أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينفعون بالمكتبات المتنقلة ، أو يشترون كتبهم - وكلها تقريباً ورقية الغلاف - من الأكشاك أو الحوانيت . وفي ١٧٧٤ قدر المبيع من الكتب في باريس بأربعة أمثال المبيع في لندن الآهالة بعدد أكثر كثيراً من السكان (٧٤) ، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس « عنيدين » (٧٥) .

أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً . وكانت صحيفة « الجازيت دفرانس » القديمة ، التي أنشئت في ١٦٣١ ، لا تزال الأداة الرسمية - وغير الموثوق بها - في نقل الأنباء السياسية . وكانت صحيفة « المركيز دفرانس » التي بدأت في ١٦٧٢ باسم « المركيز جالان » توزع في ١٧٩٠ ثلاثة عشر ألف نسخة ، وهو توزيع كان يعد ممتازاً ، وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية (٧٦) . وفي ١٧٧٧ صدرت « الجورنال دباري » - وهي أول الصحف اليومية الفرنسية ، أما صحيفة « المونيتور » الأوسع شهرة فلم تصدر إلا في ٢٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية ، مثل « الكوربيه دبروفانس » التي كان يحررها ميرابو الإبن .

وكانت النشرات أو الكراريس فيضاً غامراً اكتسح في النهاية كل شيء أمامه ، ففي الشهور الأخيرة من عام ١٧٨٨ صدر منها نحو ٢,٥٠٠ في فرنسا (٧٧) ،

وكان لبعضها تأثير تاريخي ، مثل كراسية الأبييه سبييس « ما الطبقة الثالثة » أو كراسية كامي دمولان « فرنسا الحرة » . حتى إذا جاء يوليو من عام ١٧٨٩ وجدنا الصحافة أعظم قوة في فرنسا . وقد وصفها نكير في ١٧٨٤ بأنها « قوة غير مرئية تملئ أوامرها على المدن والمحاكم على السواء ، وحتى في قصور الملوك ، رغم أنها بلا مال ، وبلا سلاح ، وبلا جيش » (٧٨) . ولعبت الأغاني دوراً في الدعوة والتحرير ، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغاني الشعبية (٧٩) .

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانتقل من كونه « شخصاً مرضياً عنه » في البلاط إلى المشاركة في اقتحام الباستيل . وقد ولد لبدال ريني (١٧٤١) ، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف . وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لاشيء إلا للاستمتاع بإثارة حديثه ، وقد كتب عدة مسرحيات ، أهدت إحداها ماري أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه . وعين سكرتيراً لأخت للويس السادس عشر ، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفا جنيه في العام . وبدا أن كل شيء يربطه بالقضية الملكية ، ولكن في ١٧٨٣ التقى بميرابو ، فما لبث أن انقلب لاذعاً للحكومة . وهو الذي اقترح على سبييس العنوان اللافت الذي وضعه على كراسية الشهيرة .

وفي هذه الأثناء ، وبوحي من لاروشفوكو ، وفوفنارج ، وفولتير ، دون بايجاز وعلى عجلة « حكماً » أفصححت عن نظرتة الساخرة إلى العالم . وقد قالت مدام هلفتيوس التي ظلت تستضيفه في بيتها بسيفر طوال سنين أربع « كلما جرى حديث بيني وبين شامفور في الصباح ، كان الحزن يغمرنى بقية اليوم » (٨٠) . وقد رأى الحياة خدمة ينخدع بها الأمل « ان الأمل دجال لا يفتأ ، يحتال علينا ، أما أنا فإن سعادتى لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل » (٨١) . « لو أن الحقائق القاسية ، والاكتشافات المحزنة ، وأسرار المجتمع - التي تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذي بلغ الأربعين - عرفها هذا الإنسان نفسه وهو في العشرين ، لأصابه اليأس ، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد » (٨٢) .

وقد سخر شاهفور من العقل ، وهو الذى جاء فى ختام عصر العقل ، ورأى فيه سيداً على العاطفة أقل منه أداة للشر . « ان الإنسان فى حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة » (٨٣) .
أما عن النساء « فهما بلغ سوء رأى الرجل فيهن ، فما من امرأة لا يسوء رأيا فيهن عن رأيه » (٨٤) . والزواج فح ، « ان الزواج والعزوبة كليهما مجلبة للعناء : وينبغي أن نفضل منهما ما ليست متاعبه بغير دواء » (٨٥) . « ان النساء لا يمنحن للصدقة إلا ما يقترضنه من الحب » (٨٦) . و « الحب الذى يوجد فى المجتمع ليس إلا تبادل أو هام واحتكاك بشرتين » (٨٧) .

فلما خرج شاهفور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشتد تشاؤمه . « باريس ، مدينة اللهو واللذة ، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً ... المكان الذى يفوح نثنه وليس فيه إنسان ينبض قلبه بالحب » (٨٨) .

والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم . « من سوء حظ النوع الإنسانى ، وحسن حظ الطغاة ، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التى يملكها الفيل ، فهو لا يتوالد وهو أسير » . . . (٨٩) .

وكان أحياناً يترسل فى الحلم بمثل أعلى « من الضرورى الجمع بين النقائص : حب الفضيلة دون اكتراث للرأى العام ، والميل للعمل دون اكتراث للشهرة ، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة » (٩٠) . وقد خطر له فى بضع سنين أن يضفى على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة ، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو ، ودانتون ، ومارا ، وروبسبير ، أحييت يأسه من جديد وبدا له يوماً أن شعار الثورة « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » أصبح معناه « كن أخى وإلا قتلتك » (٩١) . واختار الانضمام إلى صفوف الجروند ، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المتهورة . فقبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد قاييل . فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية ، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه . ومد فى أجه حتى ١٣ أبريل ١٧٩٤ ثم مات بعد أن قال لسبيس ، « انى منطلق فى النهاية من هذا العالم الذى لا بد فيه للقلب أما أن ينكسر أو يتقسى .

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شاه فور ، فإن تأثير روسو كان كاملاً وسافراً في جاك - هنرى برناردان دسان - بيير . ففي الحادية والثلاثين (١٧٦٨) كلف بوصفه مهندساً بمهمة حكومية في الأيل دفرانس ، المسماة الآن موريتيوس . في تلك الجزيرة الجبلية ، المطيرة ، الكثيرة الثمر ، وجد ما نحاله « حالة الطبيعة » التي تخياها روسو - رجالاً ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدنية . فلما عاد إلى فرنسا (١٧٧١) أصبح صديقاً مخلصاً لجان - جاك ، وتعلم أن يحتمل غضباته ، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية . وفي كتابه « رحلة إلى الأيل دفرانس » (١٧٧٣) اوصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الديني الذي يشدهم . وقد رأى أسقف اكس في هذا الكتاب انتقاضاً سليماً على فولتير ، وحصل للمؤلف على معاش ملكي قدره ألف جنيه . واستجاب برناردان بكتاب عنوانه « دراسات للطبيعة » (١٧٨٤) ، وآخر عنوانه « توافقات الطبيعة » (١٧٩٦) ، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان ، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق ، والهدف ، والخطة ، تثبت وجود عقل أعلى . وفاق روسو في تمجيده للوجدان فوق العقل . « كما تقدم العقل أتنا بالدليل على تفاهتنا ، وبدلاً من أن يهدىء أحزاننا بأبحاثه ، فهو كثيراً ما يزيدنا بنوره . . . أما الوجدان . . . فيعطينا دافعاً سامياً ، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً في حياة البشر » (٩٣) .

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من « الدراسات » (١٧٨٨) رواية سماها « بول وفرجينى » ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسى خلال التقلبات الكثيرة التي اعترت الذوق الأدبي ، ونخلصتها أن امرأتين فرنسيتين محببتين تنزلان موريتيوس ، إحداهما مات زوجها ، والأخرى هجرها حبیبها ، وتاد الواحدة بول والأخرى فرجينى . ويشب الأطفال ويترععان في واد في الجبل ، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية . ويشكل اختلافهما حب الأم وتعاليم الدين حتى إذا بانوا الحلم أحب أحدهما الآخر .

إذ ليس حولهما أحد غيرهما . وتبعث فرجينى إلى فرنسا لتتسلم إرثاً ، وهو أمر لا يحدث كثيراً فى الحالة الطبيعية . فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت فى فرنسا ، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريتيوس وبول . ويعتدو بول هابطاً إلى الشاطئ ليرى سفينتها وهى تدنو من البر ، وتغمره الفرحة بخواطر الحب والسعادة ، ولكن السفينة تجنح إلى مياه ضحلة فترطم بالقاع وتحتطمها عاصفة . وتغرق فرجينى وهى تحاول الوصول إلى البر ، ويموت بول حزناً شديداً .

والكتيب قصيدة منشورة ، رواها المؤلف ببساطة فى الأسلوب ، ونقاء وموسيقى فى اللغة لا يفوقها كتاب فى الأدب الفرنسى . ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجبل ، ولم يزعج أحداً أن لهاتين المرأتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً (٩٤) . وهما القوم لبرناردان خلفاً أصيلاً لروسو ، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التى طيبت من قبل خاطر مؤلف «اميل» . ومجداً برناردان حادو روسو فلم يستغل شهرته ، بل تجنب مخالطة المجتمع ، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء . وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء . وفى إبان عنفها تزوج وهو فى الخامسة والخمسين من فيليبسيته ديدو ، البالغة اثنتين وعشرين ربيعاً ، فولدت له طفلين سميا بول وفرجينى . وبعد أن ماتت فيليبسيته تزوج ثانية وهو فى الثالثة والستين من شابة تدعى ديزيريه وبيلبو ، رعته فى حب حتى مات فى ١٨١٤ . وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذى تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقوى الفرنسيتين وحمله إلى القرن التاسع عشر . هذا وقد ظهرت فى هذا العصر كتب أقل شأناً لم يعد الناس يقرعونها اليوم ، ولكنها شاركت فى إعطاء الجيل صوته ولونه . من ذلك أن الأبيه جان - جاك بارتلمى أصدر وهو فى الثانية والسبعين (١٧٨٨) كتاباً سماه « رحلة الفتى أناخارسس فى اليونان » بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً ، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وآثارها ومؤسساتها وعاداتها وعملاتها فى القرن الرابع قبل المسيح ، كما رآها رحالة سكوذى . وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية ، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجحة فى ذلك العصر ، وكاد يرسى أصول علم العائلات فى فرنسا .

ونافس شعبيته كتاب آخر هو « الأطلال ، أو تأملات في ثورات
الإمبراطوريات » الذي أصدره الكونت كونستانان دفولني في ١٧٩١
بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة في مصر والشام . وحين رأى حطام
الحضارات القديمة تساءل « من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب
ان يكون يوماً ما مصير بلادنا ؟ » وقد تردد الآن في إعطاء جواب متفائل
عن هذا السؤال ، ولكن فولني الذي جاء في ختام عصر العقل ، والذي ورث
كما ورث كوندوريسيه كل آماله للبشرية ، أخبر قراءه أن سقوط تلك
الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذي نجم عن صعوبة نقل المعرفة
من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل . أما الآن فقد ذلت هذه الصعوبات
باختراع الطباعة ، فكل ما يلزم منذ الآن لتفادي تدمير الحضارة هو بث
المعرفة على نطاق واسع ، الأمر الذي يفضي بالناس والدول إلى الموازنة
بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام . وفي هذا التوازن بين القوى
ستخلى الحرب مكانها للتحكيم ، « وسيصبح النوع الإنساني بأسره مجتمعاً
عظيماً واحداً ، أسرة واحدة تحكمها روح واحدة وقوانين عامة ، وتمتع
بكل السعادة التي في مقدور الطبيعة البشرية » (٩٥) .

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هي سيرة نيقولا - إدمون رستيف
دلابريتون ، الذي لقبه بعض معاصريه « روسو البالوعات » و « فولتير
خادمت المخادع » ، وهو مؤلف نحو مائتي كتاب ، طبع الكثير منها بيديه
وتمطبعته ، وبعضها فيه فحش متعمد ، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق
وعادات الطبقات الدنيا في عهد لويس السادس عشر .

ففي كتابه « حياة أبي » (١٧٧٩) أعطانا وصفاً صور فيه أباه إدمون
في صورة مثالية مشربة بالحنان ، هذا الأب الذي تذكر أن له « طلعة هرقول
ورقة صبية » (٩٦) . أما الابن فقد سجل حياته هو في ستة عشر كتاباً مستفيضة
عنوانها « مسيونيقيولا » (١٧٩٤ - ٩٧) ، اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن
تقلبات حياته وغرامياته وأفكاره . وقد ولد في بيت بمزرعة (١٧٣٧) في
ساسيه (التي سمي قسم منها لابريتون) ، على عشرين ميلاً من أوكسير .
ويروى أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة (٩٧) . وفي الرابعة

عشرة أحب جانيت روسو ، وكانت في السابعة عشرة ، وبدأ إعجابه الذي امتد طوال حياته بأقدام الأثني « كما شعوري نحوها نقياً رقيقاً كما كان حاداً . . . وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته » (٩٨) . ولعل الرغبة في تخليصه من شرك كهذه هي التي أوحى بإيفاده إلى أوكسير (١٧٥١) ليعمل تلميذاً لطابع . وسرعان ما أغوي زوجته معلمه ، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره . ثم يقول إنه في الخامسة عشرة كان له خمس عشرة «خليفة» . وبعد أربع سنين من هذه الهواية انتقل إلى باريس ، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكين ونصفاً في اليوم ، وهو أجر ممكن من الحصول على طعامه ودفع أجر موهب بين الحين والحين ، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمتين (٩٩) . وفي ١٧٦٠ حين كان في السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه بحيرة ، واسمها أجنيس لوبيك ، ثم تبين أن كليهما غير وفي لصاحبه . وتم طلاقهما في ١٧٨٤ ، لا بسبب هذه الزلات ، بل لأن كليهما وقع في شرك التأليف ، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة .

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً في ١٧٦٧ بقصته « قدم فانشيت » التي كانت قدم الصبية هي « أبرز ملامحها Pièce de résistance وكان أول عمل أدبي ناجح له هو « الفلاح المنحرف » (١٧٧٥) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة وفسوقها . فيعلمه ملحد يدعى جودي داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أكذوبة ، وأن كل اللذات مشروعة ، وأن الفضيلة عبء ثقيل لا يبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا ، وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش (١٠٠) . ويقبض على أراس ، فيقول له إدمون « يوجد إله » ، ويشنق أراس غير نادم ولا تائب . وقد سمي أحد معاصري المؤلف هذا الكتاب « علاقات الناس الغرامية الخطرة » (١٠١) ، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية (١٠٢) وفي كتاب مرافق سماه « الفلاحة المنحرفة » (١٧٨٤) واصل هجومه على انعدام المسؤولية الأخلاقية وفساد حياة المدينة . وقد استعمل حصيلته من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنتين على السلم الاجتماعي للفسق .

أما أهم أعمال رستيف فهو « المعاصرات » الذى طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (١٧٨٠ - ٩١) . وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعى جذاب هو « مغامرات أجمل نساء عصرنا » - وفيه وصف لحياة وغراميات وآداب بائعات الزهر ، وبائعات القسطل ، وبائعات الفحم ، والحياطات ، والحلاقات ، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه ويلعن المؤلف حين ياقينه في الشوارع^(١٠٣) . ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب فى الأدب الفرنسى حتى جاء بلزاك ، وقد أدان النقاد إدمان رستيف على « الموضوعات المنحطة » ، ولكن سياستيان مرسويه ، الذى كان كتابه « لوحة باريس » (١٧٨١ - ٩٠) يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً ، حكم بأنه « أعظم قصاصينا غير منازع »^(١٠٤) .

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل فى « ليالى باريس » (١٧٨٨ - ٩٤) الأحداث التى شهدتها (أو تخيّلها) فى جولاته الليلية . وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظته الأعماق السفلى لباريس - الشحاذين ، والجهالين ، والنشالين ، والمهربين ، والمقامرين ، والسكارى ، ونخاطى الأطفال ، واللصوص ، والمنحرفين ، والبغايا ، والقوادين ، والمنتحرين : وقد زعم أن محظه من السعادة كان ضئيلاً ، ومن الشقاء موفوراً ، وصور نفسه بطلاً منقذاً فى حالات كثيرة . وقد ألم بالمقاهى القريبة من البالية - رويال ، ورأى الثورة تتشكل ، سمع كامي ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح ، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عارضين رأس دلوئى مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده ، ورأى النساء يزحفن على فرساي لأسر الملك^(١٠٥) . ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان . وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه ، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة : أما فى مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن « رد لويس السادس عشر الطيب إلى مكان السلطة »^(١٠٦) . وقد عنف فى لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفين ، « ان كتابه أميل هو الذى

رمانا بهذا الجيل المغرور ، للعنيد ، الوقح ، المتصلب ، الذي يعلو صوته على من هم أكبر منه سنأ فيسكتهم » (١٠٧) .

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياها . وفي ١٧٩٤ عاد فقيراً كما كان ، غنياً في ذكرياته وحفدته فقط ؛ وقد وضع في المجلد الثامن من « المسبونيقولا » « تقويماً » بالرجال والنساء الذين عرفهم في حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات ، وأكد من جديد إيمانه بالله . وفي ١٨٠٠ أنحرت الكونتيسة بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعاني شظف العيش وأن حجرته ليس بها نار تدفئها ، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً ، ثم عينه (١٨٠٥) في وظيفة بوزارة الشرطة ، وفي ٨ فبراير ١٨٠٦ مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين . واشتركت الكونتيسة وعدة أعضاء من المجمع الفرنسي (الذي كان قد رفض انضمامه إليه) مع جمع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة في تشييعه إلى مثواه الأخير .

٧ - بومارشيه

كتب آرثر ينج في ١٧٨٨ يقول « كما نخرت المسرح الفرنسي وجدتي مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا ، سواء في عدد ممثليه الأكفاء ، أو في نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح ، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع » (١٠٨) . وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة ، بما فيها ليالي الأحد ، في التياتر - فرانسيه الذي أعيد بناؤه في ١٧٨٢ ، وفي كثير من المسارح الإقليمية . وجاءت الآن فترة نخلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان ، ونقاعت صوتي أرنو في ١٧٧٨ ؛ ثم استهل تالما الذي سيصبح أثير نابليون حياته المسرحية مع الكوميدي - فرانسيز في ١٧٨٧ ، وحق أول انتصار له في مسرحية ماري - جوزف شنييه « شارل التاسع » في ١٧٨٩ . وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذي ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسي طوال قرن من الزمان . ونحن نحميه وننتقل إلى الرجل الذي نفخ الحياة في « فيجارو » بمساعدة موتسارت وروسيني ، وأعطى الحرية لأمريكا (في زعمه) .

وقد عاش هذا الرجل ، وهو بيير - أوجستن كارون ، كما عاش فولتير ، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخي . وكان أبوه صانع ساعات في ضاحية سان - ديني الباريسية . وبعد أن تمرد قليلاً راض نفسه على احترام حرفة أبيه . فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب مكنه من أن يصنع « ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطح » (١٠٩) . وقد أجهج لويس الخامس عشر بعينة منها ، وصنع للمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها في خاتمها ، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات إطلاقاً . وفي ١٧٥٥ اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التي كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام ؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة ، ولكنها أتاحت لبيير مدخلا إلى البلاط . وبعد عام مات فرانكيه ، فزوج بيير أرملته (١٧٥٦) وكانت تكبره بخمسة سنين ، وإذ كانت تملك إقطاعاً صغيرة ، فقد أضاف بيير اسم الإقطاع إلى اسمه ، فأصبح بومارشيه ، فلما ماتت زوجته (١٧٥٧) ورث أملاكها .

ولم يكن قد حظى بأى تعليم ثانوى على الإطلاق ، ولكن الجميع - حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلقه السريع - أقرروا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره . والتقى في الصالونات والمقاهى بديدرو ، ودالامبير ، وغيرهما من جماعة الفلاسفة ، فنهل من التنوير . وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسین أدخله في نظام دواسة الهارب ، وفي ١٧٥٩ بدأ يعطيهن دروساً في الهارب . وطلب المصرفى جوزف بارى - دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالآنسات الملكيات في الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التي كان رجل المال يديرها ، وأفلح بيير في الأمر ، فأعطاه بارى - دوفرنيه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك . يقول بومارشيه « لقد أطلعنى على أسرار عالم المال . . . وبدأت أجمع ثروتى بإرشاده ، وعملاً بنصيحته دخلت في مضاربات عديدة ، أعانى في بعضها بماله أو باسمه » (١١٠) . وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين ، مقتدياً في هذا وفي كثير غيره بالسوابق التي وضعها فولتير . فما وافى عام

١٧٧١ حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك ، جاءته بلقب النبالة . وسكن منزلاً رائعاً في شارع كوندية أنزل فيه أباه وأخواته الفخوريين .

وكان له أختان أخريان تعيشان في مدريد — إحداهما متزوجة والأخرى — واسمها ليزيت — مخطوبة لخوزيه كلافيجو أى فخاردو المحرر المؤلف الذى ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة . وفى مايو ١٧٦٤ خرج بومارشيه فى رحلة طويلة راكباً عربة البريد نهاراً وليلاً إلى العاصمة الإسبانية . فعثر على كلافيجو ، ووعده هذا بأنه سيتزوج ليزيت عما قليل ، ولكنه زاع متنتلاً من مكان إلى مكان . وأخيراً أدركه بيير ، وطالبه بالتوقيع على عقد زواج ، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لتوه مسهلاً ، وكان القانون الإشباني يعتبر أى عقد يوقع فى ظرف كهذا باطلاً . فهدده بومارشيه ، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة ، وهزم الفرنسى الذكى بسلاح التسويف والمماثلة . فلما أقبل عن المطاردة ، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات ، إحداهما لإمداد المستعمرات الإسبانية بالعبيد الزنوج . (ونسى أنه قبل سنة واحد فقط كتب قصة ذم فيها الرق) (١١١) . وتحطمت هذه الخطة جميعها على صخرة الموهبة الإسبانية ، موهبة التسويف والتأجيل . على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحبة الطيبة وبخايلة تحمل لقب نبالة ، ونخب من العادات الإسبانية ما أعانه على تأليف تمثيلياته عن حلاق أشبيلي . أما ليزيت فقد وجدت حبيباً آخر ، وقفل بومارشيه إلى فرنسا نحوى الوفاض إلا من الخبرة . وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته ، ألف منها جوته مسرحيته « كلافيجو » كما أسلفنا .

وفى ١٧٧٠ مات بارى — دو فرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك . ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش على صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة . وأحيل النزاع على برلمان باريس ، فعين المستشار لوى — فالنتن جوزمان ليبدى رأيه فيه . فى هذا الظرف المخرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشوان على نخليلة . فلما أفرج عنه مؤقتاً ، أرسل « هدية » من مائة جنيه ذهبي (لوى

دور) ، وساعة مرصعة بالماس ، إلى السيدة جوزمان اغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه ، فطلبت خمسة عشر جنيهاً ذهبياً أخرى أجر «سكرتير» ، فأرسلها . وظفر بالمقابلة ، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده ، فأعدت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهاً ذهبياً ، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً ، واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة . فعرض بيير الأمر على الشعب في سلسلة من «المذكرات» فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلاً بارعاً ان لم يكن رجلاً أميناً كل الأمانة . وقد قال فولتير عنها : لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجراً ولا أفكها ولا أطرف ولا أشد إذلالاً لخصومه . فهو يحارب «دسته» منهم في وقت واحد ويحصدهم حصداً» (١١٢) . وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه في حقه في الميراث (٦ أبريل ١٧٧٣) ، واتهمه في الواقع بالتزوير ، وحكم عليه بدفع ٥٦,٣٠٠ جنيه نظير التعويض والديون .

فلما أفرج عن بومارشيه (٨ مايو ١٧٧٣) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً في بعثة إلى إنجلترا لمنع تداول نشرة فاضحة في حق مدام دوباري . فنجح في مهمته ، وواصل اشتغاله عميلاً في عهد لويس السادس عشر الذي كلفه بأن يعود إلى لندن ويرشو جوليلمو انجيلوتشي كي يمتنع عن إصدار نشرة في حق ماري أنطوانيت . وسلم انجيلوتشي المخطوطة نظير ٣٥,٠٠٠ فرنك ورحل إلى نورمبرج ؛ واشتبه بومارشيه في حيازته نسخة ثانية ، فتبعه عبر ألمانيا ، وأدركه قرب نويشتات ، وأكرهه على تسليمه النسخة ، ثم هاجمه قاطعاً طريق ، فدفعهما عنه ، ولكنه جرح ، وشق طريقه إلى فيينا ، حيث قبض عليه بوصفه جاسوساً ، وقضى في السجن شهراً ، ثم أطلق سراحه ، فركب قافلاً إلى فرنسا .

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان في التاريخ . ذلك أن فرجين أوفده في ١٧٧٥ إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين إنجلترا وأمريكا . وفي سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية ، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين في إنجلترا .

وفي ٢٩ فبراير ١٧٧٦ وجه إلى الملك رسالة أخرى ، أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سرّاً إلى أمريكا ، بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة إنجلترا^(١١٣) . ووافق فرجين على هذا الرأي ، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه لتزويد المستعمرات الانجليزية بالعتاد الحربي . وفرغ بومارشيه بحملته لهذه المغامرة . فنظم شركة « رودريج هورتاليه وشركائه » . وراح يتنقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤن والعتاد ، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكي ، وينفق (في زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والإسبانية . وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكي (٢٩ نوفمبر ١٧٧٦) « اني ماكنت لأستطيع انجاز مهمتي لولا جهود مسيو بومارشيه الذكية السخية التي يعثر بها الكمال ، هذا الرجل الذي تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه ، أكثر من دينها لأي رجل آخر على هذا الجانب من المحيط »^(١١٤) .

وفي نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك . أما الكونجرس الذي افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء ، فقد رفض الطلب ، ولكنه في ١٨٣٥ دفع ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لورثة بومارشيه .

ثم انه وجد خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والتي يحتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر في ٦ أبريل ١٧٧٣ . وفي ٦ سبتمبر ١٧٧٦ ألغى ذلك المرسوم ، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية . وفي يوليو ١٧٧٨ أصدرت محكمة في اكس - أن - بروفانس حكماً لصالحه في النزاع على وصية باري - دوفرنيه ، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه في النهاية قد برأ اسمه .

ولم تكفه كل هذه المغامرات في الحب ، والحرب ، والتجارة ، والقضاء . فقد بقي عالم لم يغزه بعد ، هو عالم الكلام ، والأفكار ، والطباعة ، وعليه ففي ١٧٦٧ قدم للكوميدي - فرانسيز أولى تمثيلياته « أوجيني » ، وقد عرضت في ٢٩ يناير ١٧٦٩ ، واستقبلها النظارة استقبالا حسناً ، ولكن

النقاد رفضوها . ثم سقطت تمثيلية أخرى هي « الصديقان » (١٣ يناير ١٧٧٠) رغم الأعداد المألوف ، « لقد ملأت الصلاة بأفضل العمال ، بأيد كالمجازيف ، ولكن جهود العصابة المتآمرة » غلبته (١١٥) . ذلك أن جمعية الأدباء التي يتزعمها فريرون قاومتها باعتبارها دخيلاً ، ومجرماً مزمناً انقلب كاتباً مسرحياً ، تماماً كما ناصبه بلاط فرساي العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلاً . ومن ثم نراه في مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف « جمهورية الأدب » بأنها « جمهورية الذئاب ، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب مخالفه في رقاب البعض الآخر . . . كل الحشرات ، والبعض الصغير والكبير ، والنقاد ، وكل الحاسدين من الصحفيين ، والكتبيين ، والرقباء » (١١٦) .

ولقي بومارشيه في المسرح كما لقي في الحياة جيشاً من الأعداء فhez مهم جميعاً . وفي أروع لحظات الإبداع التي جادت بها عبقريته المتعددة المناحي تصور شخصية فيجارو الحلاق ، الجراح ، الفيلسوف ، اللابس صدرية من الساتان وسراويل ركوب ، وقيثارته المعلقة على كتفه ، وذهنه المتوقد على استعداد لتذليل أي صعوبه ، وذكاؤه يخترق حجب النفاق والأكاذيب والمظالم التي تلوث عصره . ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً ، إنما هو اسم وشكل جديدان لشخصية مألوفة هي شخصية الخادم الذكي في الكوميديا اليونانية والرومانية ، وفي الكوميديا ديلارتي الإيطالية ، وفي شخصية مولير « سجاناريل » ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى ، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلاً من صنعه . فقد ألف أول الأمر « حلاق أشبيلية » أوبرا هازاه عرضها على الكوميدي - ايتاليين في ١٧٧٢ فرفضت ، ولكن موتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان في باريس (١١٧) . وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا ، فقبليها الكوميدي - فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (٢٤ فبراير ١٧٧٣) اضطر الفرقة لتأجيل عرضها . فلما أفرج عنه استؤنف اعدادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان . غير أن النجاح الذي لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه في « مذكراته » حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب اخراجها ، فأعلن أنها ستعرض في ١٢ فبراير ١٧٧٤ . يقول

جرىم « نفدت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة » (١١٨) . ولكن حظرت التمثيلية في اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحدث تأثيراً ضاراً بالقضية المتعلقة في البرلمان .

ومضت سنة أخرى ، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معروضاً حياته للخطر غير مرة ، فأعطى الإذن ، وفي ٢٣ فبراير ١٧٧٥ وصلت « حلاق أشبيلية » آخر الأمر إلى خشبة المسرح . غير أن الحظ لم يحالفها ، فقد كانت مفرطة الطول ، وكانت الإثارة التي مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغي . وعليه ففي يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها في عملية جراحية رائعة ، فنقبت الكوميديا من التعقيدات المشوشة ، وأخلت الفكاهة من الإسهاب في الحديث ، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربية على حد قوله - وحققت التمثيلية انتصاراً في المساء الثاني ووصفتها مدام دو دفان التي كانت تحضر الحفل بأنها « نجحت نجاحاً مفرطاً . . ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود » (١١٩) .

ثم تحداه الأمير كونتي أن يكتب تتمه للمسرحية يبدو فيها فيجارو وشخصية أكثر تطوراً ونضجاً . وكان المؤلف مستغرقاً الآن في دور المنقذ لأمر يكا ، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من « طرطوف » مولير . ففي هذه الكوميديا - زواج فيجارو - نرى الكونت المافيفا وروزينا ، وهما شخصيتا حلاق أشبيلية - يقضيان عدة سنين في حياتهما الزوجية ، وكان قد مل المفاتن التي سحرته خلال الكثير من المواقف المعقدة ، وانصرف الآن إلى مغامرة هي إغواء سوزان ، خادمة الكونتيسة وخطيبة فيجارو الذي أصبح كبير خدام الكونت وقهرمان القصر الريفى . ويقوم تابع في الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه باللحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسى وذلك بعشقه الغرير للكونتيسة التي يبلغ عمرها ضعف عمره . أما فيجارو فقد تحول فيلسرفاً ، ويصفه بومارشيه بأنه « العقل موشحاً بالمرح والملح » (١٢٠) . ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح الغالية ولحركة التنوير .

يقول لسوزان « ولدت لأكون رجل بلاط » ، فإذا رأت في هذه الوظيفة « حرفة عسيرة » أجابها « مطلقاً ، الاستقبال ، والأخذ ، والطالب — هذا هو السر في كلمات ثلاث » (١٢١) . وفي المناجاة التي جعلها روسيني تدوى في جنبات العالم كاه يخاطب نبلاء أسبانيا (وفرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً ، « ما الذي صنعتموه لتنالوا هذا الحظ الوفير ؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا ، لا أكثر ، وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً ، في حين أنني أنا ، التائه وسط الجماهير ، كما على في سبيل تحصيل قوتي فقط أن أستعين بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق في حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية » (١٢٢) . وهو يهزأ بالجنود الذين « يقتلون ويقتلون في سبيل مصالح يجهلون تماماً . «أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتد غضبي» (١٢٣) ، وحتى النوع الإنساني ينال منه ما يستحقه من قصاص : « أن يشرب وهو غير عطشان ، وأن يمارس الحب في جميع المواسم — هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان » (١٢٤) . ثم يكييل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة ، وسلطة الوزراء التعسفية ، وإخفاقات العدالة ، وحالة السجون ، والرقابة على الفكر واضطهاده « مسموح لي أن أنشر ما أشاء ، شريطة ألا أذكر في كتاباتي لا الحكام ، ولا دين الدولة ، ولا السياسة ، ولا الأخلاق ، ولا الموظفين ، ولا المالية ، ولا الأوبرا ، ولا . . . أي شخص ذي خطر ، على أن أنخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة » (١٢٥) . واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاء — وهي فقرة حذفها الممثلون ، ربما لأنها اقتربت قريباً شديداً من أسباب ترفيهم — : أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم ، ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللاتي يلبين هذا الطاب (١٢٦) . أما حبكة التمثيلية فلم تكتف بإظهار الخادم أذكى من سيده — فهذا تقليد ألوف جداً بحيث لا يسىء لأحد — بل أنها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلاً زانياً بكل ما في الكلمة من معنى .

وقبل الكوميدي — فرانسيز « زواج فيجارو » في ١٧٨١ ، ولكن لم يتيسر انخراجها حتى ١٧٨٤ . ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

عشر احتمال بروح الفكاهة المتساهلة ما تخللها من هجاء عارض ، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتمت عليه من هزء بظايق النبلاء وبالرقابة ، أحس أنه لايسعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية ، فصاح قائلاً « هذا شيء بغيفض ، ويجب ألا يمثل أبداً ، ان السماح بعرضه ليعدل تدمير الباستيل . فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه في أى حكومة » (١٢٧) ، ثم حظرت تمثيل المسرحية .

وقرأ بومارشيه أجزاء منها في بيوت خاصة ، فأثار هذا فضول القوم ، ورتب بعض الحاشية أن تمثل أمام البلاط ، ولكن هذا أيضاً حظرت في الاحتفلة الأخيرة ، وأخيراً أذعن الملك للاحتجاجات والالتماسات ، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقى الرقباء النص بعناية ، وكانت حفلة العرض الأولى (٢٧ أبريل ١٧٨٤) حدثاً تاريخياً ، وبدأت باريس كالمصممة على حضور هذه الحفلة الأولى . واقتتل الأشراف والعامّة على دخول المسرح ، وحطمت البوابات الحديدية ، وهشمت الأبواب ، واخنتق ثلاثة أشخاص ، وكان بومارشيه موجوداً ، وقد سعد بهذا الشجار ، وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع ، وكان المسرح يخصص بالنظارة في كل حفلة تقريباً . أما الحصيلة فلم يسبق لها نظير ، وتصديق بومارشيه بنصيبه كله - البالغ ٤١,٩٩٩ جنياً (١٢٨) ،

ولقد رأى التاريخ في « زواج فيجارو » إرهاباً بالثورة ، ووصفها نابليون بأنها « الثورة وقد أخذت إتفعل إفعالها » (١٢٩) . ودخات بعض عباراتها في خميرة العصر . وقد أنكر بومارشيه في المقدمة التي صدرت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أى قصد ثورى ، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية . فهو لم يطالب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها ، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات ، ومزيداً من حرية الفكر والنشر ، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

وغيرها من ضروب شطط الساطة الماكية ، وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعاع .

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التي اكتنفته . وأدرك أوجه الشبه بينه وبين الشيخ - ولكن لعله لم يدرك البعد - : ذلك المركب الذي جمع بين النشاط الذهني المحموم والدراية البارعة بأمور المال ، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الخلقية ، وتلك الشجاعة في محاربة الظلم والمحن والشدائد . واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة . وكان على يقين من أن هذا غير ميسور في فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير . لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزمنة إصدار طبعة فرنسية في سانت بطرسبرج . وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا ، وأدرك الوزير المعنى المراد ، وواعد بالإذن بتداول طبعة كاملة . وكان كتيبي باريصي يدعى شارل - جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التي لم تنشر ، فاشتراها بومارشيه بمبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرنك . ثم جمع كل ما وجدته من مؤلفات فولتير المنشورة ، واستورد حروف باسكرنيل الطباعية من انجلترا ، واشترى مصانع الورق في الفوج . وظفر بكوندورسيه معاقماً ومترجماً لفولتير . واستأجر حصناً قديماً في كيل ، عبر الرين من ستراسبورج ، وركب المطابع ، وأخرج طبعتين رغم مئات المحن والشدائد ، إحداهما في سبعين مجلداً من قطع الثمن ، والأخرى في اثنين وتسعين مجلداً من القطع الإثنى عشرى (١٧٨٣ - ٩٠) . وهذا أضخم مشروع طباعي حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ في أوروبا ، بما في ذلك « الموسوعة » . وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلاً لها ، فلم يبع منها غير ألفين ، من جهة بسبب الحملات التي شنها البرلمان والاكليروس على المشروع (١٣٠) ، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية في ١٧٨٨ - ٩٠ ، ومن جهة ثالثة لأن قلقة مركز الناس المالي منعهم من شراء المجموعة الغالية الثمن - وزعم بومارشيه أنه خسر في هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات . على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو .

أما الثورة التي أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه . ذلك أنه في ١٧٨٩ بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصرأ غالى التكلفة تجاه الباستيل ، ملأه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض . ونظر الرعاع الذين أثاروا الشغب مراراً في المنطقة شزراً إلى هذا الترف ، فأغاروا على بيته مرتين ، وأصبح بومارشيه الذى اكتمل الآن صممه وشاخ قبل الأوان مههدداً باعتباره أرسقراطياً . لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة ، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (٢٣ أغسطس ١٧٩٢) ثم أفرج عنه بعد قليل ؛ إلا أنه عاش فى خوف من الاغتيال لا يفتأ يورقه . ثم دارت عجلة الخطر فكلفتة حكومة الثورة (١٧٩٢) بالسفر إلى هولنده وشراء المدافع للجمهورية . على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه فى غيابة ، وقبض على زوجته وابنته (٥ يوليو ١٧٩٤) ، فهرع قافلا إلى باريس ، وحصل على الإفراج عنهما ، وسمح له باسترداد أملاكه . وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح ، ورحب بصعود نجم نابليون ، ثم مات فى ١٨ مايو ١٧٩٩ بالنقطة وقد بلغ السادسة والسبعين . وندر حتى فى تاريخ فرنسا أن عاش رجل حياة بمثل هذا الملء والتنوع والمغامرة .